سيرة يوم

الزمان : بيروت. المكان : آب .

==========

هبّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة ؟

لن يقول ..

سألت " م " : أي بحر سنسلك ؟

قال : البحر الأبيض ، ثمّ البحر الأحمر.

قلت لماذا أنت بعيد. هل كنت في منامي أمس ؟

قال : لاأعرف . أيّ منام؟

قلت : كنّا هنا.الغرفة ذاتها.الكلام نفسه . الصنم إياه.والغارات هي الغارات ، دخل حارس البناية ليبلغنا أنّ شخصا غريبا يدّعي أنه صديـــق قديم ، قد جاء لزيارتكم .فوضَعَ كلّ رجُل ٍ يده على مسدسه لاستقبال مايسفـر عنه الباب من غموض . وخبّأنا الصنم في الحمّام. ولكن الزائر كان عزالديـن قلــق بتوتره الضاحك . سألناه : كيف وصلت ؟ قال : كما وصلتم وصلت . لم يتغيّر فيه شيء.بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليك بريبة مَنْ يقابل غريبا لايعـرفـــه.

قلنا له اطمئن ياعز فإن "م" من غرفة العمليات ..

كنّا نتكلم معه بلا دَهَش ، كأنّه مسافر عادي قادم من باريس. كان يواصل حضوره بيننا ويشاركنا عملية الانسلاخ الجماعي الكبيرعن هذا المكان ،نسينا أنه غادرنا إلى الأبد منذ عشر سنين، وأنّ الموتى لايزورون الأحياء ولكن عزالدين بيننا بلا جلبة ولافزع .

سألته عن أحواله هناك في الآخرة . قال إنها عادية ولا جديد تحت الشمس . قلت: هل هناك شمس؟ قال: نعم هناك شمس. سألته عن المناخ فقـال إنه حار ورطـب لأن المناخ في آبحارورطب.سألتــه عمّا إذا كانـوا هنـــاك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتابعون الأخبار ساعة ساعة ، علـى شاشة التلفزيون . ويتألمون مـن الغيظ لعجزهم عن تقديم أي عـون لنا. سألته عمّن وصل إليــهم منـّا ، لعلـّهم قدموا لهم شهادة حيـّة عمّا يجري .قال : لم يصل إلينا أحد. قلت : وقد نسفوا مقبرة الشهداء، فهل نجا أحد من الشهـــداء وجاء إليكم؟ قـال: لم نقـابل أحداً منـهم، وسألتـه : أين تقيـم؟ في الجنـة أم فـي النـــار؟ قال مستغربا: ماذا تعني؟ قلت من أين جئـت : من الجنـة أم مـن جهنـّم؟قال : جئت من هناك .. من الآخرة.

حدّقت فيه ملياً لأتأكد من آثار عنوانه على جسده ، فوجدته طبيعيا وعاديا،كما غادرنا ، لاآثار للجحيم ولا علامات للنعيم . أهذا كُلّ شيء ياعزالدين؟ هل تزوجت؟ قال : لم أجدها بعد.من لاحظّ له في الدنيا لانصيب له في الآخرة . سألت وكيف تقضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد..من المكتب إلى غرفتي في الحي الجامعي ، ومن قاعات المحاضرات إلى بيوت الطلبة . وأتذكرك حين أسافر في القطار من باريس واقفا ،وحين أطلّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة ، وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع أشكال الخبز ، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقا ، سحقا بالأقدام لدعاة الاستسلام ،التفتنا إلى "ب " فلم نجده .. كان مشغولا بحماية الصنم من القصف ..

قلت لعز:أما زلنا في مرحلة ،التكوّن في حاجة إلى الأوهام لنتكوّن؟

قال:يبدو ذلك ..

قلت : ومازلنا في مرحلة التكوّن في حاجة إلى أصنام يعبُدها بحثنا عن المثال ؟

قال: يبدو ذلك ..

قلت : ومازلنا ، في مرحلة سباق الدم مع الفكرة ، وسباق الفكرة مع الإطار، في حاجة إلى حبر فاسد ، وإلى أدب مبتذل ، لنقول أننا مؤهلون ؟

قال : يبدو ذلك ..

قلت : إذا كان الجواب عن ذلك هو يبدو ذلك ، فلماذا نخرج من بيروت إلى الفضيحة..ودواليك

قال :لاأعرف.

قلت : كيف تفكرون هناك؟

قال : مثلكم كما تفكرون هنا.

قلت : ياعزالدين ، ماذا تفعل هنا . ألم تـُقتل؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق . هل أنت حيّ أم ميّت ؟

قال : مثلكم !

قلت ، ياعزالدين ، لنفترض أنني قلت لك أننا أحياء، فهل أنت ميّت؟

قال : مثلكم.

قلت : ياعزالدين، لنفترض أنني قلت لك أننا موتى، فهل أنت حي؟

قال : مثلكم.

صحت : ياعزالدين ، ماذا تريد مني؟

قال : لاشيء.

قلت : إذن دعني وشأني .

قال: آن لي أن أذهب ؟

قلت : إلى أين؟

قال : من حيث جئت.

قلت : إبق معنا قليلا ..سنخرج معا.

قال : انتهت إجازتي، وعليّ أن أعود.

قلت: من أين جئت ؟

قال: لاأعرف ..

صافحنا واحدا واحدا . ولكنه خصّك يا" م " بنظرة خاصة سحبتك منّا قليلا . عانقناه على الباب .. حيث تلاشى كخاطرة شاردة . نظرت إلى الدَرَج فلم أجده . نظرت إلى الشارع فلم أجده.اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في اي مكان.نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً ..لم أجد أحداً .. عزالدين اختفى.

قلت لهم : هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا : من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت : عزالدين .

قالوا باستهجان : من هو عزالدين؟

صرخت : الرجل الذي كان معنا. هنا.الآن. ومازالت خطواته تدق الدرج.

نظروا إليّ كما ينظرون إلى ممسوسٍ . أشرت إلى مقعده المسكون بطيفه . هنا.هنا.. كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.لم يصدقوني.قدّموا لي كأسا من الماء وفنجان قهوة ..

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور ؟

==========

فصلية الكرمل/ العدد 22/21- 1986.